

# الاشتراكية العربية

## نظرة تاريخية مقارنة

كلاروس تيم

تأتي دراسة كلاروس تيم (K. Timm) هذه، باللغة الألمانية، في سياق عرض لكتاب سامي حنا وجورج غاردر Arab Socialism. A Documentary Survey ( Leiden: Brill 1969 XII 4185 )

والعرض جيد وغي؛ لكن النظرات النقدية التي ترد في خاتمة الدراسة تسيطر عليها النزعة «المركزية» المعروفة لدى الماركسيين التقليديين والليبراليين في شرقي أوروبا وغربها. لقد ظهر منذ البدء أن حركات التحرر في العالم الثالث، التي كان عليها أن تكون مبادئها النظرية من خلال الكفاح المسلح على أرض الواقع، لا تنطبق عليها أي منظومة نظرية جاهزة في أوروبا. حتى «نمط الإنتاج الآسيوي» بالطريقة التي أراد المنظرون الغربيون أن يفهموها بها خلال الخمسين عامًا الماضية لم يكن كافياً لتفسير ما جرى ويحري في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وبعض أطراف أوروبا المتخلفة. والحديث عن «القوى ذات المصلحة في الثورة» حل محل الحديث عن «الطبقات» التي لم تكن موجودة بالمعنى الغربي المفهوم من الكلمة في مرحلة ما بعد التحرير. وفي مواجهة الصراع العالمي بين الكتلتين والحرب الباردة كان على قادة الحركات التحررية في العالم الثالث الذين قاتلوا طويلاً للخلاص من الاستعمار والاستغلال، أن يرفضوا تبعية جديدة مقنعة. وهكذا كان من المنطقي في النهاية أن تواجه حركات التحرر شكاً وتوجساً في الخارج؛ حتى من جانب أولئك الذين يعتبرون أنفسهم ماركسيين-لينينيين. لقد عجز أكثر هؤلاء عن فهم خصوصية الموقف القومي ذي البعد الاشتراكي؛ موقف عبد الناصر، وقانون، وآخرين.

وحلة «المفكر العربي» إذ تنشر هذا التعليق على «الاشتراكية العربية» إنما تهدف إلى عرض وجهة نظر «المركزيين» هؤلاء، رغم عدم اتفاقها مع كثير مما جاء في التعقيب.

ظهرت في الأعوام الأخيرة في البلاد العربية - وتأثراً بذلك في أوروبا وأميركا - دراسات لا حصر لها تتناول قضية الاشتراكية في البلاد العربية، وأشكال التطور التي عرفها المفهوم على أرض الواقع. يتراوح شكل هذه الأعمال بين المقال الصحافي والدراسة الجامعية أو العمل الوثائقي الضخم، وتتخلل ذلك كله إنشائيات تستعصي على العد، بعضها متطرف في الإعجاب، وبعضها الآخر متطرف في الهجوم والنقص. ومن بين هذه الأبحاث جميعاً، نستحق منا دراسات قليلة وفئة متأنية للجدية التي تميزها. هناك مثلاً العمل الوثائقي الرائع الذي قدمه (W. Ule) عن

الاشتراكية العربية ، والقومية العربية ، والشيوعية ، ونقاط الصراع والتلاق مع «الاسلام» و«الاشتراكية» . ثم هناك مجموعة المواد القيّمة التي نظمها ( K.H. Karpat ) عن الفكر السياسي والاجتماعي في الشرق الأوسط الحديث والمعاصر . وهناك أخيراً دراسة سامي حنا وغاردنر ( Gardner ) عن «الاشتراكية العربية» . وقد اعتمد الكاتبان في دراستهما على المادة التي اجتمعت عندهما حول الموضوع في مكتبة جامعة ( Utah ) الأميركية .

يصل سامي حنا وغاردنر في مقدمتهما التحليلية لدراستهما المذكورة آنفاً إلى استنتاج مؤداه أن «الاشتراكية العربية» ظلت حتى العقود الأخيرة من القرنين الخارج نطاق اهتمامات الدارسين الاوروبيين والأميركيين ، هذا مع أن الحديث عن اشتراكية شرقية أو إسلامية بدأ منذ قرن من الزمان مع الأفغاني وعبد الكواكي وسلامة موسى وشبلي الشميل . كان الدارسون الاوروبيون على الخصوص يعالجون الموضوع باعتباره بعداً جانبياً من أبعاد الاتجاه الاصلاحى الإسلامى الذى بدأ تحت تأثير الحضارة الغربية ، ثم فى تأثره بطريقة غير مباشرة بالمد الشيوعى الخفى فى العالم العربى . وأظهرت المحاولة المقارنة التى قام بها الكاتبان أن الباحثين الأمريكىين لم يبدأوا بالاهتمام بالقضية إلا فى مطلع الستينات ، وحتى عام (١٩٦٥) ، لم تكن هناك فى الولايات المتحدة غيرست دراسات قصيرة عن قضايا الاشتراكية العربية والتطور الاجتماعى الداخلى فى العالم العربى ، بينما ظهرت بين عامى (١٩٤٦) و(١٩٦٥) ثمانى عشرة دراسة عن القضية نفسها فى اسرائيل . أما فى المجال الصحافى ، فإن الصحف الأمريكية لم تنشر شيئاً عن المسألة حتى عام (١٩٦٥) ، بينما نشرت طوال العشرين سنة الماضية أكثر من مئة مقال صحافى عن الاشتراكية الاسرائيلية . وحتى منتصف الستينات كان الأمريكيون يصرون على بحث الموضوع دائماً باعتباره «تغلغلاً شيوعياً» فى الشرق الأوسط . وعندما يحاول الدارسون أن يجدوا تليلاً لهذا التجاهل الغرب يصلان إلى نتيجة تبدو معقولة : السبب يكمن فى «الحرب الباردة» التى كانت ما تزال ناشبة بين المعسكرين الدوليين . لقد كان على وسائل الإعلام والتثقيف الأمريكية أن تصرّ على إبقاء الرأي العام فى حالة توتر وترقب بسبب تعاظم «النفوذ الشيوعى» فى الشرق الأوسط بدءاً بحريق القاهرة عام (١٩٥٢) وانتهاء بميثاق عبد الناصر . وكل التحركات الاجتماعية الداخلية ، والاتجاهات السياسية التقدمية فى أقطار العالم العربى كانت فى نظر الصحف الأوروبية والأميركية الكبرى «مؤامرات شيوعية» لفرض السيطرة والنفوذ فى هذه المنطقة الاستراتيجية .

ولا يختلف الأمر كثيراً فى مجال الدراسات الاستشراقية عنه فى المجال الصحافى . فالفهرس الإسلامى ( Index Islamicus ) يذكر بين عامى (١٩٠٦) و(١٩٦٠) ثلاثة أعمال علمية فقط فى الموضوع (١٩٥٢ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٩) ، هذا فى حين يسجل الفهرس نفسه فى الفترة نفسها أكثر من ثلاثين عملاً فى مجال العلاقات بين الإسلام والشيوعية ، والمسلمين فى الاتحاد السوفياتى ، والحركات الشيوعية فى بلدان الشرق الأوسط . وقد لاحظت أن الدراسات كانت تقلّ فى الفترات التى تسود فيها حالة هدوء بين الغرب والاتحاد السوفياتى كالسنوات (١٩٣٨-١٩٥٢) ، بينما تزيد فى فترات التوتر والصراع فى السنوات (١٩٢٢-١٩٣٧) و(١٩٥٣-١٩٦٠) . ثم

إنه منذ العام (١٩٦١) لم تعد قضية المسلمين في الاتحاد السوفياتي رئيسية في مجال اهتمام المستشرقين . فلقد تركّز الاهتمام على العلاقات الداخلية بين « الاشتراكية العربية » و « الايديولوجية الشيوعية » .

ولعله يكون مناسباً هنا أن نؤكد أن الأمر لا يعود كله إلى سوء النية والعمل الواعي . إذ أنه على الرغم من أن « الاشتراكية العربية » ظهرت كمصطلح في أربعينات هذا القرن مقرونة بالقومية العربية في برامج بعض الأحزاب . فمن الحق أن نقول أنها لم تتحول إلى قوة فاعلة في المجال الاجتماعي إلا في مطالع الستينات . ومنذ ذلك الحين وقعت تحت أضواء الدراسات والأعمال الصحافية الغربية . وكانت القوانين الاشتراكية في يوليو تموز (١٩٦١) بالجمهورية العربية المتحدة هي نقطة التحول في مجرى الدراسات الغربية . أذ حظيت باهتمام بالغ . وهكذا يمكن اعتبار العام (١٩٦١) نقطة تحول في الواقع الاجتماعي في الشرق العربي . كما هو نقطة تحول في مجال الدراسات الغربية عن الاشتراكية العربية .

هذا التركيز المفاجئ على الاشتراكية العربية في الدراسات الغربية له أسبابه الوجية . فأكثر البرامج والقوانين التي بدأت بالظهور منذ مطالع الستينات تنسم بالعداء للامبريالية والاستغلال . وتشكّل بالتالي خطراً مباشراً على المصالح الغربية في الشرق العربي . ولأن الرؤية في كثير من هذه البرامج والإنجازات لم تكن واضحة . ولأن بعض الإجراءات التطبيقية كانت غير مدروسة . فقد كانت الدراسات الغربية تركز على نقاط الضعف هذه محاولة التأثير على المنفذيين أو استغلال الثغرات للتسلّل من جديد إلى مواطن المصالح والامتيازات . وكان المأمول أن تخدم التراجعات والتكسّات في البداية في مجال إبراز مساوئ ما سمي بالاشتراكية العلمية .

مجموعة حنا وغاردنر التحليلية - التوثيقية تسهم في النقاش في مجال المصطلح والمضامين والمواقف التي شكّلت جميعاً « الاشتراكية العربية » أو « الناصرية » . ويقدم المؤلفان للقسم الوثائقي من كتابهما بخمس دراسات قصيرة توضح خلفيات وحدود مشروع « الاشتراكية العربية » في المشرق العربي . ولم يكن عبثاً ما قام به الباحثان من نشر لمقالة شريف ماردن عن جهود الإصلاح في تركيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ذلك أن الإصلاح العربي مرتبط بخطوط وحدود مثيله التركي في كثير من النقاط . مثل قضية الإصلاح . والتنظيمات . والليبرالية . والاشتراكية الاسلامية . والموقف من العالم الحديث . ولا يقلل من أهمية دراسة ماردن كون المحاولة التركية قد تلاشت قبل تمامها . أو أن العالم العربي يعيش اليوم في ظل ظروف مختلفة . ان محاولات التجديد في تركيا العثمانية تبقى بوصفها مادة للمقارنة بالغة الإفادة . وتتلو دراسة ماردن دراسات ثلاث للباحثين عن سلامة موسى . والاشتراكية الاسلامية . والأمائر القومية . ومع أن سلامة موسى لم يكن الأول ولا الأوحيد في زمنه فيما يتصل بحمل أفكار اشتراكية معينة . فلا شك أنه يمثل نموذجاً هؤلاء المتأثرين بالفكرة الاشتراكية قبل الحرب الاولى . خصوصاً وأن المؤلفين لم يهملوا الإشارة إلى شخصيات أخرى مؤثرة مثل الأفغاني وعبدو والكواكي وآخرين .

أما فصل الدراستين عن الاشتراكية الإسلامية فهدفه التذليل على أن المسلم لا يعتبر الاشتراكية مبدأً غريباً عليه . بل يمكن أن يستوعبه في عالمه الديني باعتباره جزءاً من عقيدته الإسلامية . وكتاب مصطفى السباعي « اشتراكية الإسلام » الذي يترجم المؤلفان بعض مقاطعه في القسم الثاني من الكتاب هو مستندهما في هذا المجال . ويحاول المؤلفان في فصلهما عن القومية العربية أن يعلّلا تَمسُّك العرب الشديد بالفكرة القومية . إنها يريان أن التثبث هذا جوهرى وضرورى في هذه المرحلة على الأقل : جوهرى للاختلاف الفعلى القائم بين « الاشتراكية العربية » النابعة من خصوصيات الشعب وتقاليدته وتلك الآتية من الغرب .. وضرورى لأن العرب يعانون ، فيما يزعم الدارسان . « أزمة هوية » . والتأكيد على « عربية » الاشتراكية تأكيد على الهوية من ناحية . وتأكيد على رفض « الجماعة » المطلقة المعروفة في الدول الاشتراكية من ناحية ثانية .

إن أهمية مصطلح « الشعبوية » الذي يستخدمه الباحثان ويطورانه تكمن في الاختلافات المضمونة وطرق الاستعمال العديدة التي ترد في سياقها . فالعروبيون يستخدمون المصطلح أحياناً في مجال إدانة « الاقليميين » و« الانفصاليين » . كما يستخدمونه أحياناً أخرى في مجال إدانة « الشيوعيين » الذين يضعون تضامنهم الطبقي فوق « التضامن العربى » .

ويأتى أخيراً في ختام القسم الأول من الكتاب مقال فايز صايغ في تحديد مضامين « الاشتراكية الناصرية » أو « العربية » . استند صايغ في تحليله إلى الدستور المصرى والميثاق وخطب في مختلف المناسبات . ليصل أخيراً إلى تحديدات تقريبية في مجال بحثه : أما في السياسة الداخلية فتدعو « الناصرية » إلى التغيير الثورى . والجمهورية . وضرب الإقطاع . والاقتصاد المخطط . والاشتراكية . وأما في السياسة العربية فتدعو الناصرية إلى الوحدة السياسية . وفي المجال الدولى تكافح الاشتراكية الناصرية الاستعمار والامبريالية . وتتضامن مع شعوب العالم الثالث . وتقاوم الأحلاف ومناطق النفوذ . وتؤمن بالحياد الإيجابي . ويرى صايغ أن أهمية ناصر في المجال العربى تكمن في تحويله لأحلام الأمة العربية في الوحدة والاشتراكية والتحرر إلى حقائق في بعض أجزائها على الأقل . لقد جعل عبد الناصر « الاشتراكية » بُعداً أولياً من أبعاد القومية العربية .

يعود المؤلفان في مطلع القسم الثانى من الكتاب إلى تبين نواحي الأصول والتراثية في الفكر الإصلاحى العربى - الناصرى . فيدرسان مفهوم « التكافل » في العالم العربى المعاصر من خلال عملين لمصطفى السباعى ومظهر . أنهما يترجمان عن السباعى فصلاً في التكافل مأخوذاً من كتابه المشهور « اشتراكية الإسلام » . لقد حاول السباعى انطلاقاً من موقف ليبرالى إصلاحى أن يوضح أن الاسلام لا يتناقض والالتزام الاجتماعى . وقد أكسبت كتابات السباعى أفكار الإصلاح الاشتراكي زخماً جديداً بسبب مكانته الدينية والسياسية . فقد كان نائباً في البرلمان السوري مراراً . كما قاد جماعة الإخوان المسلمين في سورية . وأسّس عام (١٩٤٩) جناحها السياسى : « الجبهة الاشتراكية » . هذا في حين يتتبع مظهر في عمله عن الجوانب الدينية للتكافل ويركز على الأبعاد الاجتماعية والسياسية للأمر .

بحيث يبدو التكافل ضرورة عملية براغماتية. لكنَّ للكتاب هدفاً جديلاً أيضاً. إنه يرى أن التكافل حتى دلعني الذي شرحه به يرتبط بالأمة العربية. انه «تكافل اشتراكي لا شيوعي». ولم يكتفِ مظهر بهذا الكتاب - لتأكيد على الفروق الأساسية بين الاشتراكية العربية والشيوعية. بل ألَّف كتاباً آخر بعنوان «الاسلام لا الشعوية» والشعوية عنده هنا تعني الشيوعية. لقد انطلق المؤلفان من بعض المصطلحات ذات المضامين العميقة المتجذرة في النفس العربية مثل فلاح. واجماع. وعامة. وزكاة. ومصلحة. وطائفة. ومساواة ليوضحا انه كان من الأدق تسمية الاشتراكية العربية بالتكافلية العربية.

وهكذا ضحى المؤلفان بالعوامل المؤثرة في الفكرة الاشتراكية في الوطن العربي -- وهي عوامل دولية ووطنية في الغالب -- لصالح العوامل الداخلية التقليدية الأقل تأثيراً. لكن هذا لا يمنع من اعتبار عملهما قيماً في مجال التوثيق للفكر التقليدي العربي في مواجهته لمشاكل الحياة المعاصرة.

بعدها يتابع المؤلفان دراسة الأصول الاشتراكية العربية من خلال رجال الإصلاح الاجتماعي الأوائل الذين صاروا تراثاً للاشتراكية العربية المعاصرة. في هذا القسم من الدراسة يجري التأكيد على أهمية رجال كمحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٣) وخالد محمد خالد (١٩٢٠). ويرى المؤلفان أن الشخصيات المدروسة ليست نموذجية بل اختيرت لتوفر المادة لدراستها. وكان يمكن التركيز على حسن العطار (١٧٧٢-١٨٣٥) أو الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) أو النديم (١٨٤٥-١٨٩٦) أو البارودي (١٨٤٠-١٩٠٤) لو توفرت المادة المناسبة. لكنني أرى أن اختيار الباحثين كان موفقاً إذ أن هؤلاء الثلاثة يعتبرون نموذجيين فعلاً في المجال الذي اختيروا له. ويستند المؤلفان في دراستهما لفكر محمد عبده الاجتماعي إلى أربعة مقالات نشرها ابان توليه لتحرير الجريدة الرسمية (١٨٨١-١٨٨٢). وقد كان الموقف الثوري الذي تمر به البلاد حافزاً أحد نظراته في كشف البؤس الاجتماعي الذي كانت مصر تعاني منه. أما في مجال عرضها لفكر الكواكبي فقد ترجأ بعض آرائه في الاستبداد والثورة مما ورد في كتابه «طبائع الاستبداد. ومصارع الاستعباد» (١٩٠٣). وكان الكواكبي قد اضطر إلى مغادرة بلاده بعدما لاحقه الأتراك بسبب وقوفه إلى جانب الفئات الشعبية الأكثر نوساً. وكتب كتابه هذا أثناء إقامته في مصر في البيئة التي كان يسيطر عليها محمد عبده. وخير حجة دراسة الكاتبين لفكر خالد

المبكر بعنوان «خالد محمد خالد: السلام والخير». وقد اعتمدا في فهم فكره على كتابه المعروف المترجم إلى الانجليزية بعنوان «من هنا نبدأ». وكان الكاتب قد ألّفه عام (١٩٤٨) وصدر عام (١٩٥٠) حاملاً هجوماً عنيفاً على قوى الاستغلال السياسي والرجعية الدينية في المجتمع المصري آنذاك. ويدين خالد في كتابه انانية البورجوازية الكبيرة والاقطاع. وشكالية الديمقراطية المصطنعة، ونفاق السياسيين. وتعصّب الاخوان المسلمين وضيق أفقهم. ثم يتحدّر من مخاطر النظام الرأسمالي الناشئ في مصر والقائم على المنافسة والصراع والتكالب. وهو يرى أن سوء توزيع الثروة واستغلال السلطة هما العائقان الرئيسيان للتقدم بمصر. وينتهي الكتاب بدعوة حارة إلى اشتراكية حقيقية عادلة

وليبرالية . وقد لقي مؤلف خالد محمد خالد منذ ظهوره اهتمامًا غريبًا ملحوظًا . فقد كان يمثل فكر البورجوازية الصغيرة الصاعدة . وآمالها الإصلاحية . وكان ظهوره في فترة مشحونة ( كالعام ١٩٥٠ ) مهمّدًا لثورة ( ١٩٥٢ ) وما جاءت به . ولا شك انه ترك في نفوس « الضباط الأحرار » آثارًا بالغة العمق .

ثم يأتي القسم التوثيقي من الكتاب محاولاً أن يؤرخ للاشتراكية العربية ابان فاعليتها وبعد خروجها من حيز النظرية إلى التطبيق . هل الاشتراكية هي الطريق إلى عصرة عربية ؟ هكذا يبدأ قسم الوثائق هذا عارضاً موادّ وبرامج ومقالات وآراء عربية في الموضوع تغطي العشرين سنة الماضية حتى سنة ( ١٩٧٠ ) . وتأتي أكثر هذه المواد من سورية ومصر وتونس .

في مطلع القسم التوثيقي يورد الكاتبان ترجمة كاملة لمقالة جمال الدين الافغاني بعنوان « الاشتراكية الاسلامية » التي وردت في « خاطرات جمال الدين » ( بيروت ١٩٣١ ) . وآراء جمال الدين هذه أساسية لفهم وجهة نظر الاصلاحيين المسلمين . عرباً وغير عرب . في المسألة الاجتماعية . هذه القضية التي صارت اليوم . لكثرة ما كتب فيها . موضوعاً قائماً بذاته في نطاق الفكر الاسلامي الحديث والمعاصر . وفي مقابل أفكار الاصلاحيين المسلمين عن الاشتراكية يترجم المؤلفان دراستين للمسيحيين العربيين سلامة موسى ( ١٨٨٧ - ١٩٥٨ ) وشبلي الشميل ( ١٨٦٠ - ١٩١٧ ) . تحمل دراسة سلامة موسى عنوان « الاشتراكية » . وقد ظهرت عام ( ١٩١٣ ) . في حين تحمل دراسة الشميل عنوان « الاشتراكية الصحيحة » . وقد ظهرت عام ( ١٩١٣ ) أيضاً في مجلة « المقتطف » . وخلفية الرجلين المسيحية تلتقي الضوء على صلاتها الأوثق بأوروبا وبالعالم الفكري وتياراتها السياسية . لكن ظروف مجتمعيها . - التي تقف عندها معرفتها بالموضوع الذي يعالجانه . تجعل اشتراكيتهما ثورية مثالية متطرفة في فهم « المساواة » .

وتتشابه الأصول الاجتماعية للرجلين . كما تتشابه منابعها الثقافية : انهما يمثلان الجماعات المنورة من البورجوازية المصرية الصغيرة في ابامها . هذا وان يكن الشميل شامياً الأصل . لقد وضع الشميل خطة لإقامة حزب اشتراكي في مصر عام ( ١٩٠٨ ) . ثم شارك سلامة موسى في تنفيذ الخطة عام ( ١٩٢٠ ) بعد وفاة الشميل . وانطباعات سلامة موسى التي سجلها بعد قراءته لبعض أجزاء « رأس المال » لما ركس تثير الاهتمام . انه يسهم في اطلاع مواطنيه على تيارات الفكر السياسي والاجتماعي السائد في أوروبا آنذاك عندما يعرض أفكار اوين وبرودون وما ركس . ثم يحاول تحليل انقسام المجتمع إلى طبقات واحتدام الصراع الطبقي . ثم لا يخشى في النهاية أن يدعو ( عام ١٩١٣ ) إلى تغيير اجتماعي باتجاه الاشتراكية . إنه يرى أن الاشتراكية لا يمكن تحقيقها في مصر بدون « تربية ديمقراطية » للشعب .

وهكذا . فإن انقلاباً مفاجئاً لن يحقق الاشتراكية بل لا بد من فترة تحضير طويلة تغلغل خلالها الأفكار الاشتراكية في أعماق الناس . وإدارة الدولة . وأجهزتها تدريجياً . كتب سلامة موسى ما يزيد على الخمسين دراسة . وتحققت ثورة ( ١٩٥٢ ) وهو ما يزال على قيد الحياة . وقد لقي الترحيب والتقدير الذي يستحقه من لقادة الجدد الذين أمروا بإعادة

طبع كتابه عن الاشتراكية عام (١٩٦١). وفي الطبعة الثانية لكتابه «تربية سلامة موسى» التي ظهرت عام (١٩٦٢) بعد وفاته. يذكر أن كارل ماركس كان أعمق المفكرين أثرًا في فكره وحياته.

في مجال التوثيق للفكر الاشتراكي في سورية قام الدارسان بترجمة فصل من كتاب مؤسس حزب البعث ميشال عفلق بعنوان «معالم الاشتراكية العربية» (١٩٤٦). كما ترجما برنامج حزب البعث العربي الاشتراكي (١٩٤٧). وبعد سورية عقد المؤلفان فصلاً عن الاشتراكية بوقية في تونس. ثم خصصا بقية فصول الكتاب لعرض مادة عن الاشتراكية الناصرية في مصر. وهكذا فقد قاما بترجمة الفصل الخاص بـ «حتمية الثورة» من الميثاق الوطني. ثم ترجما النظام الأساسي للاتحاد الاشتراكي العربي (١٩٦٢). ودستور الجمهورية العربية المتحدة (١٩٦٤). ولم يترجما شيئاً من خطب الرئيس جمال عبد الناصر لاعتقادهما انها تحتاج إلى دراسة خاصة منفصلة.

تثير بعض آراء الباحثين وطروحاتها أفكاراً. وتدفع أحياناً إلى النقاش والمعارضة. فهما يشيران في البداية إلى عوامل خارجية بمعنى من المعاني أثرت على ماهية النظرية الاشتراكية العربية أو الناصرية. كما أثرت على تطورها. مثل قضية فلسطين. وتعاظم نفوذ الاتحاد السوفياتي في آسيا وأوروبا. والوضع الخاص ليوغوسلافيا. وايدولوجية باندونغ. ودور «الاشتراكية العربية» مستوعبة في قلب القومية العربية - كحركة احتجاج وتصدد. لكن «الاشتراكية العربية» تبقى بالنسبة لها محض ظاهرة عربية في الأساس. ينبغي أن تفهم في سياق تيار ثقافي تاريخي عربي أصيل.. «بكلمة أخرى. فإن الاشتراكية في العالم العربي ليست ظاهرة خارجية أو عارضة أو جديدة. كما انها ليست أيضاً استيراداً عربياً... انها بالنسبة للدارسين تيار ثقافي - اجتماعي أصيل شديد الصلة بطواهر المجتمع العربي الأخرى ونتيجة لها بشكل من الأشكال. انها تمثل طريقاً عربياً لحل المشاكل السياسية والاجتماعية الخاصة بالمجتمع العربي. وهكذا فإن الباحثين يضعان الاشتراكية العربية بوصفها طريقاً ثالثاً بجانب «شيوعية» الاتحاد السوفياتي. و«ماراهانية» اندونيسيا. وفي النتيجة فإن منطلق حنا وغاردنر يفرض عليها القول بأن الاشتراكية العربية هي في الأساس ذات طابع نظري واحد في البلاد العربية كلها. أما اختلافات التطبيق فتعود إلى انفراد كل بلد ببعض الظروف والظواهر الاجتماعية الخاصة.

إن الحديث عن اشتراكية «عربية» و«ناصرية» «مستقلة» و«متفردة». ونابعة من تاريخ الأمة العربية وحاجاتها وتطلعاتها الحضارية والتاريخية يتسم ببعض التجوُّز والسطحية ويدفعنا إلى القيام بمحاولة تصحيحية تعيد الأمور إلى نصابها. خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار ربط الباحثين للاشتراكية العربية بـ «روح» الأمة العربية و«طابعها» و«اخلاقها». ان الدارسين الغربيين يبدون حريصين في حديثهم عن أفكار التحرر والتقدم في العالم الثالث على التأكيد على استقلاليتها وكونها طريقاً ثالثاً لأنهم يفصلونها بذلك لا عن الطريق الرأسمالي الامبريالي فحسب وهو أمر ليس بوسعهم إنكاره - بل عن «الشيوعية الوثنية» أيضاً التي يخشون تأثيرها على مصالحهم في الشرق

الأوسط . بالإضافة إلى ذلك فإن تفسيرهم هذا يخدم مصلحتهم في شق صفوف الثوريين في العالم بالتأكيد على تيارات خاصة ثورية . صلتها بالماركسية اللينينية ضعيفة أو منقطعة . انني أرى أن ظاهرة « الاشتراكية العربية » لا يمكن فهمها إلا بمراعاة التناقضات على المستوى العالمي ووسائل حلها . وفهم الاشتراكية العربية مرتبط بفهمنا للصراعات والنقاشات حول مسار التطور في العالم الثالث . وللوعي الطبقي في كل بلد عربي . إن حركات التحرير والاستقلال التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية هي نتيجة منطقية لانتصار الثورة الاشتراكية وللتغيرات النوعية في حركات التحرير في العالم . في المرحلة الأولى من مراحل الصراع من أجل التحرر كان هدف الحركات الثورية طرد الاستعمار والحصول على الاستقلال في ظل وعي قومي متصاعد تقوده البورجوازية الوطنية وفئات المجتمع الوسطى بشكل عام . لكن . مع دخول الفلاحين والعمال والبورجوازيين الصغار في عملية التغيير السياسي والاجتماعي . تصاعد التوتر داخل المجتمعات المتحررة حديثاً . وتعاظمت الدعوة إلى عدالة اجتماعية أكبر . وكان على عناصر الطبقة الوسطى القائدة من المثقفين والضباط وبعض الفئات الأخرى أن تبحث عن حلول جديدة ناجعة للمشاكل الاجتماعية المتفاقمة على المستوى الوطني بعد الاستقلال . والماضي الاستعماري للنظام الرأسمالي في بلدان العالم الثالث جعله - رغم النجاحات التي حققها في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية - غير محبوب ولا مرغوب . ان نظاماً رأسمالياً كالنظام الرأسمالي الأوروبي لا يبدو جذاباً للبلدان نامية تسعى إلى مزيد من التقدم والعدالة الاجتماعية . وقد أثبتت بعض التجارب في هذا المجال فشلها في بلدان أفريقيا وآسيا على الخصوص . مما صرف أكثرية الدول النامية عن تبني النظام الرأسمالي الغربي بخلافه . ومن ناحية أخرى . فإن سمة الثورة الاشتراكية الطيبة . وتصاعد نفوذها بعد الحرب العالمية الثانية جعلها شعوب العالم الثالث . وخصوصاً الشعوب العربية . مهتأة لتقبل أفكار اشتراكية جذرية . ولقد أسهم الماضي غير الاستعماري للثورة الاشتراكية في سرعة تقبل العرب للأفكار الاشتراكية . ثم ان العداء للاستعمار . والعدالة الاجتماعية في الداخل -- وهما خصيصتان اشتراكيتان أصيلتان - جعلتا إقبال الشعوب العربية على الآراء الاشتراكية أكثر حرارة وتلقائية . وأنت في النهاية النجاحات التي حققتها الثورات الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي والصين في الخمسينات لتجعل تبني الاشتراكية هو الحل الوحيد المقبول من جانب جماهير الشعب . إذ تمكنت الثورات الاشتراكية من حل المسألة القومية والقضايا الأساسية للمسألة الاجتماعية . وكان انتصار الاتحاد السوفياتي في الحرب الثانية وقيام اشكال من التعاون الوثيق بين الدول الاشتراكية وبعض بلدان العالم الثالث مما شجع انتشار الفكر الاشتراكي في البلدان النامية . خاصة وان الحركة الاشتراكية كانت على درجة من القوة المؤثرة في فرنسا وإنجلترا الدولتين الاستعماريتين الرئيسيتين . وهكذا . فإنه في نطاق عملية جدلية : الظروف الداخلية والاحتجاجات من ناحية ، وتأثير الاشتراكية العلمية في النظرية والتطبيق من ناحية أخرى . ظهرت في البلدان الآسيوية والأفريقية نظريات اجتماعية . ومشروعات اشتراكية نظرية . وتعكس هذه النظريات والبرامج الموقف السائد في آسيا وأفريقيا وسط ظروف التحرر من التبعية والاستغلال . ومحاولة بناء مجتمع أكثر عدالة وتوازناً . ولا شك أن « الموقف السائد » هو موقف غير رأسمالي . وهو يتضمن بالتالي بعض أساسيات الموقف الاشتراكي . وتبدو صعوبات القضية بوضوح حينما يحاول القادة في آسيا وأفريقيا وفي العالم



العربي على الخصوص تحويل الأفكار الاشتراكية التحررية إلى برامج وخطط عمل تطبيقية. إن الطبقة العاملة في البلاد العربية هي طبقة ضعيفة عددياً. وليست منظمة تنظيمًا جيدًا وتشوب وعيها الطبقي شوائب قومية وإصلاحية ودينية. لذلك فإن المنظرين للاشتراكية يأتون غالبًا من البورجوازية الصغيرة. والمتقنين. ورجال السلك العسكري. وهكذا تنعكس في هذه النظرات والنظريات الاتجاهات غير الناضجة للبورجوازية. وقضاياها ومصالحها الطبقية. فتختلط الخطوط الأساسية للاشتراكية العلمية في البلدان العربية ببعض الميول الليبرالية والإصلاحية والدينية والتاريخية والقومية. وبعض المثاليات حول العدالة والمساواة. وعلى هذا فإنه يمكن اعتبار الأشكال «الاقليمية» و«القومية» للاشتراكية. وإلى حد ما «الاشتراكيات» العربية أو الناصرية نتاجًا ليوتوبيات ومطامح البورجوازية الصغيرة في العالم العربي والعالم الثالث. ومع أن هذه «الاشتراكيات» تجاوزتها الظروف لأنها لم تعد تملك الأساس الاجتماعي الذي يمكن أن تقوم عليه. كما أنها لم تعد تستطيع اقتراح حلول ناجعة للمشاكل الاجتماعية والسياسية التي تستعصي يومًا بعد يوم. مع ذلك فإن أشكالاً متعددة من هذه الاشتراكيات ما تزال تحكم في كثير من بلدان أفريقيا وآسيا. على أنه لا يمكن القول أن هذه الاشتراكيات تعوق حركة التحرر في البلدان المعنية. إذ أن الأمر ليس بهذه البساطة. فالحكم على شكل معين من هذه الاشتراكيات سلبًا أو إيجابًا يتوقف على تأمل عدة تساؤلات في هذا السياق: الأساس الطبقي الذي تنطلق منه اشتراكية كهذه؟ ما هي أهدافها الاجتماعية أو المثالية؟ ما هي القوى الاجتماعية أو التحالفات السياسية التي تتولى مسؤولية التطبيق؟ ما هو موقف قادتها على المستوى العملي في نطاق الكفاح ضد الامبريالية؟ إلى أي مدى يبلغ تصميم المسؤولين في التطبيق؟ وهكذا فإنه لا يمكن الحكم على اشتراكية من اشتراكيات العالم الثالث من خلال مبادئها النظرية المعلنة أو برامجها البرلمانية. فحدود التطبيق للبرامج هي الحدود الموضوعية التي يتم الحكم على أساس منها. وانطلاقًا من هذا كله فإن أشكال الاشتراكية المطبقة في العالم العربي يمكن حصرها في أنواع ثلاث:

## ١ - الاشتراكية العلمية:

يركز المؤلفان غردنر وحن على الأصول البورجوازية للأفكار الاشتراكية في العالم العربي. وهكذا فإنها يتجاهلان تيارات أخرى قديمة فئات غير بورجوازية كالمثقفين الثوريين والعمال. وتمثل منذ أواخر العشرينات في الأحزاب الشيوعية في مختلف البلدان العربية. صحيح أن هذه الأحزاب نادرًا ما شاركت مشاركة فعالة في نضال اجتماعي سياسي. لكن تأثيرها الفكري جاوز فاعليتها الواقعية على المستوى الاجتماعي والسياسي. إن هذا الأمر لا بد وأن يؤخذ بعين الاعتبار عندما يجري الحديث عن منابع الفكر الاشتراكي في البلاد العربية. وما تشهده اليوم من اتجاه متزايد نحو اشتراكية علمية ثورية في بلدان عربية كسوريا وسودان والجزائر والجمهورية العربية المتحدة سيزيد من نفوذ الأحزاب الشيوعية في العالم العربي ويدعم مواقع تأثيرها.

## ٢ - مشروع الاشتراكية الديمقراطية البورجوازي :

الأصول الاجتماعية لهذا التيار الغالب في العالم العربي هي حتى الآن بورجوازية وتتركز في فئات المثقفين والضباط وبعض الفئات الفلاحية . انها في الحقيقة حركات قومية ذات توجهات اشتراكية ديمقراطية أو ليبرالية . واشتراكية من هذا النوع نقابلها في برامج أحزاب كالاتحاد الاشتراكي العربي في مصر . وحزب البعث في سورية . وجبهة التحرير الجزائرية . والجبهة القومية في اليمن الجنوبية . الخ . ان تعميق النضال ضد الامبريالية والاستغلال في البلدان المذكورة في السنوات الأخيرة وضع هذه الاحزاب على أول طريق الاشتراكية العلمية . لذلك . كثيراً ما تتبنى الأنظمة هناك مواقف ماركسية - لينينية في الفترة الأخيرة . من هذه المواقف ذلك الاعتراف الجزئي بالصراع الطبقي . ودور الطبقة العاملة في النضال ضد كل أشكال الاستغلال . والتخطيط الاقتصادي . والعمل على تحقيق ديمقراطية شعبية والتشديد على خلق وعي اشتراكي تغيير في المجتمع وبين الفئات ذات المصلحة في الثورة . ان علاقات الحذر والتوتر بين الأحزاب القومية الحاكمة التي تتوجه نحو الاشتراكية العلمية . وبين الأحزاب الشيوعية تحل محلها تدريجياً علاقات تعاون أو تحالف . وفي السنوات القادمة فإن هذه الاشتراكيات . إما أن تتبنى الماركسية - اللينينية صراحة أو تتردد إلى موقع بورجوازي قومي ضارح .

## ٣ - البورجوازية والاشتراكيات الديمقراطية :

نعني بها أشكالاً زائفة ذات طابع إصلاحي . تستغل « شعبية » الفكرة الاشتراكية للحفاظ على مواقعها الطبقية . فبعض الفئات التقليدية أو المتغيرة تسارع إلى استخدام مصطلحات وبرامج شبه اشتراكية لمنع تحقق تطور اشتراكي حقيقي . فبدلاً من الصراع الطبقي يجري الحديث عن السلام الطبقي والاجتماعي . وبدلاً من الثورة يجري الحديث عن الإصلاح . في هذا السياق يفخر هؤلاء بما تحقق حتى في العهد الاستعماري باعتباره انتصاراً « اشتراكياً » للنظام الجديد . ان الإجراءات الإصلاحية التي تتحقق في سياق البدء الرأسمالي مثل الإصلاح الزراعي . وتطور النظام التعليمي . والديمقراطية البرلمانية . والتخطيط الاقتصادي . والاقتصاد المختلط . كل هذا ينظر إليه بوصفه ثورية اشتراكية متقدمة . وتطورات كهذه يمكن مراقبتها في المغرب وتونس ولبنان . حتى ان الكوبيتين يتحدثون أحياناً عن « الاشتراكية الحقيقية » التي يحققونها عندما يقومون بتوزيع عائدات النفط توزيعاً يعتبرونه عادلاً .

نعود أخيراً إلى التذكير بأن مصطلح « الاشتراكية العربية » لا يستخدم بطريقة دقيقة . والمؤلفان يعلان الشيء نفسه . فهما يعنيان بالاشتراكية العربية تارة كل النظريات والأشكال الاشتراكية ذات الطابع « العربي » بينما يعنيان بها أحياناً أخرى « الناصرية » أو التجربة التي طبقت في مصر . وإذا كنا قد تمكنا من تحديد استعمالين رئيسيين لمصطلح الاشتراكية العربية . فإن الذي يبتنى هو محاولة تحديد مصطلح « الاشتراكية الاسلامية » إذ أن المصطلح هذا هو أيضاً غير دقيق أو واضح المندلول . فتارة يمكن فهمه في نطاق النوع الثاني من أنواع الاشتراكية العربية . وطوراً لا بد من

وضعه ضمن النوع الثالث. وفي هذه الحالة فإن التأكيد على كلمة «الاشتراكية» يراد منها إظهار عظمة الإسلام وعصريته وعدالته. وتحقيق الوحدة الوطنية. والوصول إلى جبهة عريضة من التأييد. فحركة الاشتراكية الإسلامية هذه يعتبرها أنصارها استمراراً للإصلاحية القرن التاسع عشر الإسلامية. وتستغل هذه الحركة جوانب الاسلام الاجتماعية في دعوتها مع وضعها في سياق عصري. ومع أن حركة كهذه قد تكون ذات فائدة في الصراع من أجل التحرر لكنها في المرحلة التالية تتضمن مخاطر كثيرة على حركة التقدم الاجتماعي. على أي حال فإن «العصرنة» التي تتقدم في كل المجالات عن طريق النظام التعليمي ووسائل الإعلام. والانفتاح على الخارج. والنمو الصناعي، وكل ذلك سيدفع الغيبات من على خشبة المسرح. لكن الإسلام لا يستخدم فقط من قبل العناصر الإصلاحية. بل من جانب الرجعية العربية أيضاً. فبالنسبة هؤلاء فإن الاسلام هو «الاشتراكية الحققة» التي تنحصر في «الزكاة» أو ما يسمى بالكافل.

ويقودنا ما سبق إلى القول أنه في هذا المجال ليست الأصول الثقافية أو الخلفيات هي الأساس في مجال الحكم على شكل من أشكال الاشتراكية العربية. فالمهم في هذا المجال هو النظر إلى القوى الاجتماعية التي تقود الحركة الاشتراكية في بلد عربي ما. والمهم هو التعرف إلى ميزان القوى الاجتماعي. ودرجة الوعي الطبقي. ومدى تقدم الصراع الطبقي مرحلياً. هذا مع أننا لا ننكر تأثير العوامل الجانبية ذات الطابع الثقافي أو الاجتماعي.

وفي النهاية فإن تقييم عمل غاردنر وحنا تقيماً كاملاً ليس سهلاً. خصوصاً وإن المؤلفين يعتبران كتابها هذا كجزء أول من عمل سيصدر جزؤه الثاني قريباً متضمناً توثيقاً للفكر الاشتراكي العربي في الجزائر والعراق واليمن والسودان. وتوثيقاً لعصر النهضة العربية وقضايا الفكرة التكافلية، وأصول الاشتراكية الناصرية. إن اختلافنا مع الدارسين في التقييم لأصول الاشتراكية العربية وحدود تطورها لا يحول دون الثناء على المحاولة باعتبارها الأولى من نوعها. وباعتبار المؤلفين أرادوا أن تكون دراستها فرضية يمكن تطويرها وإغناؤها بالنقاش. لقد جمع الدارسان في توثيقها مواداً ممتازة ونادرة الوجود أحياناً وجعلوها في متناول الباحثين الذين لا يعرفونه العربية. ولم يقع المؤلفان في الجدلية المتعالية التي تميز منظري «الحرب الباردة» بل حاولوا أن يفهموا ما يدور في الشرق الأوسط المليء بالأفكار وأسباب التوتر والتغير، وكانت وسيلتها لذلك عرض وجهات نظر عربية أصيلة دون ابتسار أو تفسيرات مغرضة. ولعلّ التغييرات المتسارعة في الشرق الأوسط قد قللت من «حضور» الكتاب. إذ أن بعض ما يعرضه المؤلفان بوصفه وثيقة أساسية قد تحول إلى تاريخ من التاريخ، لكن ذلك يمكن التعويض عنه في الجزء الثاني من الدراسة. ولقد تجاوز المؤلفان الهدف الذي وضعاه لنفسهيا عندما أضافا إلى الوثائق المترجمة دراسة نقدية ثرية المضمون والمصادر عرضاً فيها وجهات نظر بالغة الجدة والعمق والموضوعية، ثم زودوا الكتاب بفهارس للمصادر والمراجع لم تكن معروفة من قبل.

إن هذه الدراسة ليست مهمة بالنسبة للمستشرقين فقط. بل لكل العاملين في حقول الدراسات السياسية

والاجتماعية في الجامعات . فإمام هؤلاء الآن مادة ضخمة لم تكن معروفة من قبل بسبب الحواجز اللغوية . أما بالنسبة للمثقف العربي فإن الدراسة التقديمية تستدعي الكثير من العناية والتأمل .

### المختصر

- ١ - الإشارة إلى ماركس وردت في كتاب سلامة موسى «هؤلاء علموني» وبالتحديد في طبعته الثانية الصادرة بعد ثورة ٢٣ يوليو - تموز في هذا المقطع يخضع الكاتب مجدداً للترعة السائدة لدى أغلب الكتاب الغربيين ، المتمركسين منهم والليبراليين . وهي نزعة تتجاهل أساسية النضال القومي بمضمونه الاشتراكي الذي يؤلف خصوصية التحرر في العالم الثالث . فيطبق الكاتب هنا المقولات التجريدية المبهودة دونما حاجة إلى إعمال النظر فيها اكتسبه حركات التحرر من «خصائص» أصبحت حقائق ملموسة في تاريخ شعوب العالم الثالث الراهن . والعرب خاصة ( المترجم )
- ٣ - يتبنى الكاتب هنا مرة أخرى الفكرة الجاهزة التي تنكر إمكان التطور نحو مزيد من التلاحم بين الإطار القومي والمضمون الاشتراكي دونما الاعتراف بضرورة نحو البورجوازية أو اللبينية .